المشكلات

٥ ـ اللغـــة العربية

للأستاذ محمد عرفه

لماذا أخفقنا فى تعليمها ؟ — كيف نعلمها ؟

ومن غريب الأمر أن الطريق الذى أشرنا بسلوكه ، والذى أبان العلم أنه لا طريق إلى تعلم اللغات سواه ، هو الطريق الذى هدت إليه الفطرة وسلكته فى تعليم الولدان لغات آبائهم ، وتعليم الأجيال لغة أممهم ، فالفطرة اصطنعت فى تعليم اللغات طريق الحفظ والتكرار ، والمرانة والاعتياد

ينشأ الطفل فيسمع أبويه وأهليه يتكلمون بمواضعات خاصة فيحفظها وتتكرر على سمعه ، ويعتادها لسانه فتصير ملكة ، وبذلك يحذق لغة قومه

كأن الفطرة قد علمت أن اللغة فى الإنسان ملكة ، والملكة لا تكتسب إلا بالتكرار فاستعملت ذلك فى تعليم أمم الأرض لغاتها ، ولم تخطىء مرة واحدة فتلجأ إلى طريق القواعد والقوانين لأنها لا تكسب الملكات

أما نحن فجهلنا ذلك ، وأخذنا نعلم اللغة بالقواعد والقوانين ، ولم نلجأ إلى تعليمها بالحفظ والتكرار ، فكانت الفطرة أقرب إلى الصواب ، وأبعد عن الخطأ ، وأثقب فكراً ، وأسد نظراً ، وكنا أقرب إلى الخطأ ، وأبعد عن الصواب ، وأعظم خرقا . وكانت الفطرة تعلم اللغة أثناء المعاملات اليومية من لعب وقضاء حاج ، وبيع وشراء ؛ أما نحن فقد أحطناها بالقوانين التى يفنى العمر ولا تفنى ؛ فكانت مقتصدة أعظم الاقتصاد ، وكنا مسرفين أشد الإسراف . كانت الفطرة تعلمها بالتدرج من الأسهل إلى الأصعب ، ومن البسيط إلى المركب ، مراعية حال المتعلم ، فتعطيه ما يناسبه ولا يجاوز عقله . أما نحن فلم نراع ذلك بل تعمدنا مضادته ، فعلمنا القواعد التى هى فلسفة اللغة ، تعلم بعد تعلمها ، ومرتبتها فى الوجود متأخرة عنها ، فلم تظهر إلا بعد ظهور اللغة بأزمان . أقول علمنا القواعد قبل تعلم اللغة وجعلناها وسيلة إلى تعلمها ، ولم نراع حال المتعلم فجئنا بأطفال الأقسام الابتدائية والتعليم الأولى ، وأخذنا نعلمهم القواعد ، ونعطيهم من العلم ما ينبو عن أذهانهم ؛ فكانت جارية على مقتضى الحكمة ، وكنا جارين على غير مقتضاها ، أو على مقتضى شىء آخر ، وكانت ميسرة كل التيسير ، وكنا معسرين كل التعسير

وكانت تعلمها أثناء سرد الحوادث اليومية ، وأخبار الجيران ، والأهل والخلان ، والمحادثات السارة والأخبار الممتعة ، وتاريخ الناس وملحهم ، وفى أثناء الأغانى والمدائح والمراثى . وكنا نعلمها فى قواعد جافة خالية من كل ذلك ، فكانت تعلمها مع المتعة والمسرة . وكنا نعلمها مع الضيق والحرج . ولما راعت ذلك كله كانت ناجحة فى تعليمها كل النجاح ، ولما أهملنا ذلك كله كنا مخفقين كل الإخفاق

أرانى فيما سبق قد أطلت المسافة فى الاستدلال ، وذكرت فى البين أن اللغة ملكة ، وأن الملكة لا تكتسب إلا بالتكرار ، وكنت أستطيع أن أختصر الطريق ، وأقول لننظر إلى الفطرة كيف تعلم اللغة ، ولنحاكها فيما تفعل ، ولنعمل كما تعمل

وإذا نظرنا هذا النظر وجدناها تعلم أبناءنا اللغة العامية بالتكرار والمحادثة ، وكذلك كانت تعلم أطفال العرب لغة آبائهم . كانوا يسمعون فى طفولتهم من آبائهم ومخالطيهم مفردات اللغة وأساليبها ، والبليغ المأثور من بيانها ، ويتكرر ذلك على أسماعهم ، فيحاكونه ويقلدونه ويتكلمون على نهجه ، فيكتسبون الملكة فى اللغة بالسماع والتكرار والحفظ ؛ فإذا الطفل الناشىء ولسانه البادىء جار على هذه اللغة لا يخطىء ولا يشذ ، ولو حاول جهده أن يحيد عن الصواب لاستعصى ذلك على لسانه ، ولوجد فى ذلك مشقة وعنتا

إن محاكاة الفطرة فى أعمالها داعية إلى النجاح والتوفيق ، وكلما كان المرء أقرب إليها كان أقرب إلى الصواب ، وأبعد عن الخطأ ، ويكون خطؤه بقدر بعده عنها ، ومجافاته لقوانينها

ومن سوء حظ المتعلمين أن ما فى المدارس المصرية مما له تعلق بالطريقة الطبيعية قد أهمل ولم يعن به ، وهو فيها صورة لا معنى ، وشكل لا حقيقة ؛ ففى المدارس المصرية حفظ ومطالعة ، ولكن التلاميذ يهملون ذلك الشق القليل الذى فرضته عليهم المدارس

المصرية من المحفوظات ، ولا يحفظون إلا النزر القليل ليقولوه أمام لجنة الامتحان الشفوى . وفيها مطالعة ، ولكن بعد العام كله وهم لم يطالعوا إلا صفحات معدودة ، وفى الكتب المقررة شواهد على النحو والصرف والبلاغة ، ولكن التلاميذ لا يحفظون شاهداً ، ولا يستظهرون مثلاً

وضعت يدى على خمسة تلاميذ اتفاقا دون اختيار ، وكانوا من تلاميذ الثقافة ، وكان علم البيان مقرراً عليهم وفيه كثير من الأمثلة والشواهد ، وسألتهم واحداً واحداً عما حفظوه من شواهد البيان ، فلم يكن منهم من يحفظ بيتاً واحداً ، ومن المحزن أن الممتحنين لا يقيمون وزنا لذلك ، وأن المدرسين لا يقيمون له وزنا أيضاً ، فلا هؤلاء يحتمون عليهم حفظ الشواهد ، ولا أولئك يرون المقصر فى حفظها مقصراً فى الامتحان

وهذا إهمال عظيم فى الحفظ والتكرار ، وهو وإن كان محزنا فان لهم العذر كل العذر فيه ، لأنه ثبت فى أذهان الجميع معلمين ومتعلمين أن المعول عليه إنما هو القاعدة ، فإذا فهمت وحفظت فما عداها من حفظ الشاهد والمثل فضل ، ولا يعلمون أن هذا الفضل هو الذى إذا عنى بحفظه وتكراره رسم صورة ذهنية ، يكتب الناشىء على مثالها ، وينسج على منوالها

وقد علمتنى التجربة أن ما يؤخذ من المحفوظات فى المدارس لا يغنى التلاميذ شيئاً ، فمن الواجب أن يكلف التلاميذ أن يعكفوا على بعض دواوين الأدب ، فيقرؤوها ، أو يختاروا منها ، ويجمعوا ما يختارون فى كراسة ويحفظوه ويفهموا معناه ، وتكون هذه الكراسة بيد التلميذ عند الامتحان شاهدة على جده وعمله ، فيقدمها للممتحن فيرى أهى كافية أم غير كافية ، ثم يمتحنه فيها من أولها ومن وسطها ومن آخرها ليعلم هل حفظ ما اختار

وقد علمتنى التجربة أيضاً أن ما يؤخذ من المطالعة فى العام الدراسى أمام المدرس لا يغنى عن التلاميذ شيئاً ، فمن الواجب أن يكلفوا بكتب يطالعونها أثناء العام الدراسى ويكتبون آراءهم فيها ويلخصون محتوياتها ، وكذلك فى العطلة ، ويكون لهذا وذاك دخل فى تقدير الدرجات

كل ما فى الوجود يشهد لى أن اللغة إنما تكتسب بالحفظ والتكرار وأن القواعد لا تغنى فى اكتساب ملكة اللغة فتيلا

لعلك جلست إلى بعض الممثلين واستمعت إلى حديثه فرأيته يتكلم بالعربية لا يكاد يخطىء : وينحدر كالسيل ، ويهدر كالرعد

ولعلك جلست إلى بطل من أبطال اللغة العربية يعرف قواعد النحو والصرف والبلاغة لا تكاد تخفى عليه منها خافية ، فرأيته يتكلم بالعامية لا يكاد يقيم جملة ، ولا يستطيع أن يلين لسانه بالعربية ، فعجبت كيف يملك الأول هذا القدر من العربية مع جهله ، وكيف يقصر عنه الثانى مع علمه

أتدرى لمَ هذا ؟ إن الأول زاول اللغة العربية عملاً ، وحفظ أدواره فى الروايات ، وألقاها ومرن على ذلك فاكتسب ملكتها ، فإن تكلم بعدُ صدر عن الملكة فأجاد ؛ أما الثانى فعلم قواعد النحو والصرف والبلاغة ، ولم يزاول اللغة حفظاً وعملاً ، فلم يكتسب ملكتها فكان هذا القصور المعيب

أجلست مع بعض العامة الذين يكثرون من قراءة الجرائد والروايات فرأيته يقيم لسانه بالعربية أكثر من ذلك النحوى الذى جعل همه فى القواعد والقوانين

ولعلك رأيت بعض من لا يعرفون علم العروض والقافية ، ولا يعرفون البحور وأوزانها ، ولا الحبن والطى ، إذا سمع بيتاً مكسوراً أدرك عيبه بمجرد سماعه ، وإذا سمع بيتاً صحيحاً أدرك صحته كذلك ؛ ولعلك رأيت بعض من يعرفون هذه العلوم لا يهتدون لعيب البيت أو صحته إلا إذا أخذوا يتعرفون من أى بحر هو ويجرونه على أوزانه . إن ذلك لأن الأول تربى عنده مقياس ذهنى لأوزان الشعر من كثرة قراءته وحفظه ، فإذا سمع شعراً اختل من هذه المقاييس أدرك ذلك بذوقه ، والآخر لم تربّ عنده هذه المقاييس بل شغل بقواعد الشعر عن حفظه وقراءته والقواعد لا تربى الملكة

إن كثيراً من علماء العروض لو حاولوا نظم بيت من الشعر أعجزهم ؛ وإن كثيراً ممن لا يعرفون هذا العلم يأتى لهم الشعر طيعاً منقاداً — والسر ما قلناه وكررناه من أمر الملكة والتكرار